مشاهير العراق

في

القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر

Les hommes célèbres de la Mésopotamie.

كان القرن الثالث عشر ثم هذا القرن الذي نحن فيه من احفل القرون التي مرت على العراق بعد سقوط الدولة العباسية بنوابغ الادباء ، واكابر العلماء ، واماثل النبلاء ؛ وقد مضى ردح من الزمن ولم ار من عني بتأليف كتاب يتكفل بشرح سيرهم ويوفيهم حقهم على اختلاف صنوفهم ومشاربهم — فحملني الكلف باجتلاء عرائس المأثور من المنظوم والمنثور وسير العظماء والمشاهير على تأليف كتاب جامع مانع يضم بين دفتيه تراجم من نبغ في هذين القرنين في العراق من مشاهير العلماء ، ومجيدي الشعراء ، واخبار الاعيان والامراء ، وعظماء التجار والاغنياء ، ومبرزي القراء والمغنين والظرفاء ... الخ وظللت زمنا اتسقط اخبارهم من مختلف المصادر ، وأسأل عنهم من لقيت من الشيوخ الثقات حتى توفر لدي منها « رقائق تحسد رقتها انفاس النسيم ، وقلائد تروع حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم »

وقد احب حضرة الاستاذ الكرملي ان انشر في كل جزء من «لغة العرب» نموذجا من ذلك يكون تحفة لقرائها ، ومرجعا للباحثين عن تاريخ العراق . وها أنا ذا محقق بغيته :

نموذج من تراجم الظرفاء

الملا طعمة بن عبد الوهاب

— ١ —

Mulla Tōmah ibn Abd-al-Wahhāb.

كان في بغداد من نوادر الاعصار يذكرك اذا سمعت اخباره أبا نواس في نوادره وغرائبه .

وهو ربيب الشيخ محمد سعيد الطبقجلي مفتي بغداد وجده صبيا يكني عند

باب جامع الحيدرية ضالا فسأله عن اسمه فقال : « طعمة » وعن ابيه فقال : « عبدالوهاب » فأخذه الى داره وعني بتربيته وتهذيبه ووكل به من علمه القرآن الكريم فحفظه حفظا متقنا ، وتعلم الخط فجوده ، ودرس اللغة العربية وشدا الادب ، واتقن صناعة التجليد ، وحذق ضروب الغناء والضرب على الكمنجة حتى اصبح في فنونه اعجوبة الدهر .

وكان مفرط الذكاء مجيدا في تقليد الحركات والحكايات والاصوات ، منقطع النظير في السياسة : يتصرف فيها تصرفا عجيبا ويأتي فيها ضروبا لايكاد يقدر عليها انسان فكان تارة يعوم على سطح الماء منتصبا حتى لكأنه جالس على كرسي او فراش وثير ويضع على فخذه ارجيلة يدخن بها ذاهبا آئبا يمينا وشمالا . وتارة يقطع دجلة منكسا رأسه لا يبين منه سوى عجزه خارجا الى غير ذلك مما يفتن الالباب من عجائب الالعاب .

ومن نوادره قصة مشهورة يذكرها الشيوخ فيما يذكرون في مجالسهم من النوادر والغرائب . وذلك انه قبل ان يبقل عذاره ويطر شاربه صنع من الصوف لحية وشاربا ووضعهما في موضعهما من وجهه ولبس عمامة هندية كانها العش ، وهيأ له من حمل امامه الفانوس (المصباح) وقت العشاء في الصيف فاستأذن على مربيه المفتي وكان مجلسه غاصا باصحابه الفضلاء والاعيان قائلا : انه من حكماء الهند واطبائها فأذن له فلما دخل نهض المفتي واستقبله وجذبه الى الصدر ورحب به وقد خفي عليه امره فاخذ طعمة يتكلم بلهجة هندي تعلم العربية واظهر ان له اليد الطولى في الطب والحكمة . وكان في المفتي وفي كثير من جلسائه امراض لا تخفى عليه لكثرة خدمته لهم ووقوفه على خافيهم وباديهم ، فصار كل واحد منهم يتقدم اليه فيجس نبضه ويفحصه فحص الطبيب الحاذق فيخبره بما فيه ويصف له ما يناسبه من العقاقير حتى بهرهم واخذتهم الدهشة من حذقه ومعرفته . فلما استأذن للوداع شيعه المفتي وجماعته معجبين به زائدين اليه في الاجتماع به كثيرا حتى اذا بلغ السلم انحدر مسرعا كالبرق فضحك الخدام ضحكا عاليا سمعه المفتي واصحابه في السطح فسألوا عن السبب فأخبروهم بالامر فاستغرقوا في الضحك واعجبوا بنكتته .

وقد بدل اسمه اخيرا باسم « ناجح » فقال فيه الاديب محمد فهمي العمري على سبيل الممازحة :

هنئت يا «ناجح» في هذا اللقب ... اسما سما جميع اسماء العرب
يالك من اسم اذا سمعته ... يهزني من حسن لفظه الطرب
لازلت يا «ناجح» تسمو في الورى ... باسمك هذا رتبا فوق رتب
تفاؤلا بالخير في نجاحكم ... به دعاك الناس يا ابا العجب
لم تر عيني كاتبا بين الورى ... كناجح ان خط يوما او كتب
وان تغنى اسكت ابن مغيد ... واخجل الحبر ابن هاني ان خطب
اجارك الله من اسم قد غدا ... في قبحه كانه داء الجرب
لا بارك الله بطعمة بلى ... بارك عز شأنه في ذا اللقب

وجن طعمة في آخر عمره وتوفي سنة ١٣١٥ هـ في بيت آل جابر افندي في الحلة ، وقد بلغني ان لديهم مجموعة من شعره ولم يصلني منه الا شيء قليل اوردته هنا :

قال وقد سرقوا حذاءه وتركوا له عوضا عنه حذاء طويلا يفضل عن قدمه:

قطع الله يمينا ... سرقت مني حذائي
عوضتني بحذاء ... نصفه يمشي ورائي

ويروى « عوضتني فلك جسر .... الخ ». وقال يهجو بيتا من بيوتات بغداد :

بسوء الفعل يا أبناء .... تركتم كل قلب فيه علة
فما فيكم فتى يرعى ذماما ... ولا حر يرى حق الاخلة
تزديتم ثياب اللؤم طبعا ... وصرتم في البرايا شر ملة
فما شهد الزمان لكم بفضل ... ولا ذكرت لكم في الخير خصلة
اذا طرق الضيوف لكم فناء ... طلبتم من نساء الحي بوله
لتطفوا نار موقدكم سريعا ... مخافة ان يحوم الضيف حوله [١]

[١] هذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر :

قوم اذا استنبح الاضياف كلبهم ... قالوا لامهم بولي على النار

متى ترحم[٢] قلوبكم فقيرا ... متى تسمح[٢] اكفكم ببصله
متى جدتم على عاف بشيء ... يساوي قدره في الناس نمله
فمن يرجو شرابا من سراب ... كمن يرجو ندى من آل ...
فقبح حيكم من حي قوم ... متى ما حرك النباح ذيله
لكم في السؤ اخبار تجلت ... كعين الشمس لم تحتج ادله[٣]
جراحات السنان لكم طباع ... لها لسع اباد الجسم كله
فصور شخصهم قبرا بارض ... بها الاموات اضحت مضمحله
ولا تأسف على قوم لئام ... تبين لؤمهم عند الاجله
ولا تغتط من الاردا ودعه ... ودع في .... ستين جزله

وقال يمدح السيد عارف حكمة ابن العلامة السيد عبدالله الالوسي يوم كان «مدير المال» في السماوة ، وقد وجدته بخط شيخنا العالم الجليل السيد علي علاء الدين الالوسي عليه رحمة الله :

زان السماوة عارف بوجوده ... فحكت به روضا زها بورود
او ما ترى ارجاءها بأريجه ... طابت وازهر روضها بوجود
بوفوده انحاؤها قد اشرقت ... قد اشرقت انحاؤها بوفود
شهم سما الاقران فضلا ياله ... فضل يحار العقل في تقليده
ما خاب من وافاه يطلب نيله ... كم معدم احياه وابل جوده
ورث المكارم كابرا عن كابر ... والفضل عن آبائه وجدوده
لما مضى اسلافه خلق الندى ... فسعى وايم الله في تجديده
وكذا الوفا لما وهت اركانه ... اضحى شديد العزم في تشييده
اكرم به من باريحي ذا بسه ... بذل الندي لعدوه وودوده
لازال في فلك السعادة كوكب ... يبدي السنا لقريبه وبعيده

محمد بهجة الاثري

❀❀❀

[٢] كذا بالجزم
[٣] يقال احتاج اليه لا احتياجه